"ثلاثون قاعدة في المحبة" من كلام ابن تيمية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ،وبعد :

منَّ الله عليَّ بقراءة رسالة (**قاعدة في المحبة**) لابن تيمية رحمه الله، وكانت تجيب على **الأسئلة التالية** :

ماهو أصل كل فعل في العالم ؟ ولِم كان الحب هو أصل البغض ؟

وما علاقة حركة الكون وتسخيره بالملائكة بالمحبة ؟ وكيف كان جماع القرآن هو محبة الله ؟

ما الشيء الوحيد الذي يُحب لذاته ؟ ما ضابط المحبة المحمودة والمذمومة؟ وكيف يعمل الشيطان بالمضاهاة في جانب محبة الله؟

محبة الله من أعظم الأدلة على نبوة الأنبياء كيف يكون ذلك ؟! وكيف أصبحت المحبة علة فاعلة وغائية في نفس الوقت ؟ وهل محبة الله شعور أم انجذاب كلي لله سبحانه؟ وما سر بداية الشيخ رسالته بالمحبة وختامها بالجهاد والصبر والتواصي؟

لم جعل ابن تيمة كل محب لغير الله فيه عبودية لذلك المحبوب ؟ وما آثار ذلك على واقع المؤمن ؟ ما أقسام الناس تجاه الإرادة والقدرة ؟ ومن أي الأقسام أنت ؟

كيف دخل الشيطان على مَن جعل تعبده لله بمحبة ما حرمه الله من فعل الفواحش والأصوات المحرمة ؟

والأسئلة وغيرها وإجابات جميع ذلك موجودٌ في رسالة المحبة ، وكل ذلك لتصحيح العمل العبادي وتقوية العزم، وتحصيل نور البصائر، وسأساهم في انتقاء قرابة (ثلاثين قاعدة) من كلام ابن تيمية في المحبة، صالحة للشرح والمدارسة والإضافة عليها، وتنزيلها على الواقع المعاصر .

القاعدة الأولى :

أصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة؛ فالحب أصل كل فعل ومبدؤه .

القاعدة الثانية :

المحبة والإرادة تكون إما بواسطة وإما بغير واسطة، مثل فعله للأشياء التي يكرهها كشرب الدواء والمكروه، وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره ونحو ذلك؛ فإن هذه الأمور وإن كانت مكروهةً من بعض الوجوه فإنما تُفعل أيضًا لمحبة وإرادة، وإن لم تكن المحبة لنفسها بل المحبة لملازمها، فإنه يحب العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء. ويحب رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه، كما قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} فلا يترك الحي ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، لكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة؛ كما يفعل ما يكرهه لما محبته أقوي من كراهة ذلك، وكما يترك ما يحبه لما كراهته أقوي من محبة ذلك .

القاعدة الثالثة :

المحبة والإرادة أصل للبغض والكراهة وعلة لها، ولازمًا مستلزمًا لها من غير علة، وفعل البغض في العالم إنما هو لمنافاة المحبوب؛ ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض، بخلاف الحب للشيء فإنه قد يكون لنفسه لا لأجل منافاته للبغض .

القاعدة الرابعة :

فالمحبة أصل كل أمرٍ موجود، وأصل دفع كل ما يُطلب الوجود، ودفع ما يطلب الوجود أمرٌ موجود لكنه مانع من وجود ضدِّه ، فهو أصل كل موجودٍ من بغيضٍ ومانع ولوازمهما .

القاعدة الخامسة :

إن ما في الأجسام من حركة طبعية فإنما أصلها السكون؛ فإنه إذا خرجت عن مستقرها كانت بطبعها تطلب مستقرها، وما فيها من حركة قسرية فأصلها من القاسر القاهر، فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة .

القاعدة السادسة :

جميع المحبات والإرادات والأفعال والحركات هي عبادة لله رب الأرض والسماوات .

القاعدة السابعة :

أصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي مافي عبادته وحده لا شريك له؛ إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل .

القاعدة الثامنة :

حب الله أعظم الأنواع المحمودة؛ بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها.

القاعدة التاسعة :

ليس شيءٌ يُحب لذاته إلا الله ولا تصلح الإلهية إلّا له .

القاعدة العاشرة :

كل حيٍ فله إرادةٌ وعمل بحسبه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها لله تعالى، كما أن لا وجود لها إلا أن يبدعها الله.

القاعدة الحادية عشرة :

كل عمل صالح هو نافع لصاحبه وبالعكس، وكل ما كان صالحًا مشروعًا فهو حق وعدل وبالعكس .

القاعدة الثانية عشرة :

اتباع الهوى يكون في الحب والبغض .

القاعدة الثالثة عشر :

ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة؛ وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه في باطلة فاسدة، كان كل عمل لا يُراد به وجهه باطلًا، فأعمال الثقلين الجن والإنس منقسمةٌ منهم من يعبدُ الله ومنهم من لا يعبده، بل قد يجعل معه إلهًا آخر، وأما الملائكة فهم عابدون لله. وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما، فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبته وإرادته وقصده، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين، وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره .

القاعدة الرابعة عشر :

إذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة، وأعظمها في الحق محبة الله وإرادته بمحبته وحده لا شريك له، وأعظمها في الباطل أن يتخذ الناس من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، ويجعلون له عدلًا وشريكًا؛ عُلم أن المحبة والإرادة أصل كل دين سواء كان دينًا صالحًا أو دينًا فاسدًا؛ فإن الدين هو من الأعمال الظاهرة والباطنة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله.

القاعدة الخامسة عشر:

إذا كان كل محبة وإرادة والترك يكون عن بغض وكراهة، وكل أحدٍ همامٌ حارث له حب وبغض لا يخلو الحي عنهما، وعمله يتبع حبه وبغضه، ثم قد يكون ذلك في أمور هي له عادة وخُلق، وقد يكون في أمورٍ عارضة لازمة؛ علم أن كل طائفة من بني آدم لا بد لهم من دينٍ

يجمعهم؛ إذ لا غني لبعضهم عن بعضٍ، وأحدهم لا يستقل بجلب منفعته ودفع مضرته، فلا بد من اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فلا بد أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلهم مثل طلب نزول المطر وذلك محبتهم له، وفي دفع ما يضرهم مثل عدوهم وذلك بغضهم له، فصار ولابُدَّ أن يشتركوا في محبة شيء عام وبغض شيءٍ عام، وهذا هو دينهم المشترك العام .

القاعدة السادسة عشر:

لا بد من كل دين وطاعة ومحبة من شيئين :

أحدهما : الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد .

والثاني :نفس صورة العمل التي تُطاع ويُعبد بها، وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة .

القاعدة السابعة عشر :

ففي قلوب بني آدم محبةٌ وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم، كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه وبذلك تصلح حياتهم ويدوم شملهم،
وحاجتهم إلى التأله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء؛ فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم وبفقد التأله تفسد النفس، ولن يصلحهم إلا تأله الله وعبادته وحده لا شريك له وهي الفطرة التي فطروا عليها .

القاعدة الثامنة عشر :

من المعلوم أن كل محبة وبغضة فإنه يتبعها لذة وألم، ففي نيل المحبوب لذةٌ وفراقه يكون فيه ألمٌ ، وفي نيل المكروه ألمٌ وفي العافية منه تكون فيه لذةٌ .

القاعدة التاسعة عشر:

اللذة هي الغاية من الحركات الإرادية فتكون الغاية من الذات عن الغاية من الحركات .

القاعدة العشرون :

إذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالى ورسوله، وحب الله أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأليه الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع وهذا هو الإسلام .

القاعدة الحادية والعشرون :

دعاء إله آخر مع الله هو اتخاذ ندٍّ من دون الله يحبه كحب الله؛ إذ أصل العبادة المحبة .

القاعدة الثانية والعشرون :

لا يبتلى بالعشق إلا من فيه نوع شركٍ في الدين، وضعف إخلاص لله؛ وسبب هذا ما ذكره بعضهم فقال : إنه ليس شيءٌ من المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله أو محبة بشر مثلك، **أما محبة الله** :فهي التي خلق لها العباد وهي سعادتهم وقد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع .

وأما البشر المتماثل من ذكر أو أنثى فإن فيه من المشاكلة والمناسبة ما يوجب أن يكون لكل شيء من الحب نصيبٌ من المحبوب يستوعبه حبه؛ ولهذا لا يعرف لشيء من المحبوبات التي تحب لغير الله من الاستيعاب ما يعرف لذلك، حتى يزيل العقل ويفقد الإدراك ويوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب، ويوجب مرض الموت، وإنما يعرض هذا كله لضعف ما في القلب من حب الله وإخلاص الدين له عبادة واستعانة، فيكون فيه من الشرك ما يسلط الشيطان عليه حتى يغويه هذا بهذا الغي الذي فيه من تولي الشيطان والإشراك به ما يتسلط به الشيطان؛ ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوبه أكثر مما يطيع الله حتى يطلب القتل في سبيله كما يختار المؤمن القتل في سبيل الله .

القاعدة الثالثة والعشرون :

وكل ما أحب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين لله، وعشق الصور من اعظم الفتن .

القاعدة الرابعة والعشرون :

إن من أحب الله وأحبه الله؛ أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، وولى من يواليه الله وعادى من يعاديه الله، لا تكون محبة قط إلا وفيها ذلك بحسب قوتها وضعفها؛ فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابِّه، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نبذ مايبغضه المحبوب فإنها تكون تامة .

القاعدة الخامسة والعشرون :

المحبوبات على قسمين :

أ. قسم يحب لنفسه .

ب . وقسم يحب لغيره؛ إذ لا بد من محبوبٍ يحب لنفسه، وليس شيءٌ شُرع أن يحب لذاته إلى الله تعالى، وكذلك التعظيم تارة يعظم لنفسه وتارة يعظم لغيره وليس شيء يستحق التعظيم لذاته إلا الله تعالى .

القاعدة السادسة والعشرون:

في الإنسان قوتان : قوة الحب، قوة البغض .

وإنما خَلق ذلك فيه الحق؛ ليحب الحق الذي يحبه الله، ويبغض الباطل الذي يبغضه الله ، وهؤلاء هم الذين يحبهم الله ويحبونه .

القاعدة السابعة والعشرون :

إذا كان كل عمل أصله المحبة والإرادة، والمقصود منه التنعم بالمراد المحبوب، فكل حي إنما يعمل لما فيه من تنعمه ولذته، فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصدٍ، كما أن التعذب والتألم هو المكروه الأول وهو سبب كل بغض وكل حركة امتناع، لكن وقع الجهل والظلم في بني آدم فعمدوا إلى الدين الفاسد والدنيا الفاجرة فطلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده .

القاعدة الثامنة والعشرون:

المحبة الباطلة الفاسدة تُوجب ظلم المتحابين لأنفسهما ولغيرهما... ألا تري أن الرجل إذا أحبَّ غير امرأته، أو المرأة إذا أحبَّت غير زوجها قصَّر كل منهما في حقوق الآخر، واعتدي عليه، بل إذا أحبَّ الرجل امرأةً أو صبيًا قصَّر في حقوق أهله وأصدقائه ممن له عليه حق، بل وظلمهم أيضًا كما يظلم غيرهم لأجله، وهذا سوى ما في ذلك من حق الله الذي يوجب غليظ عقابه ... ولهذا أمر سبحانه أن لا تأخذنا بهما رأفه في دين الله فإن الرأفة والرحمة توجب أن توصل للمرحوم ما ينفعه وتدفع عنه ما يضره، وإذا رأف بهما أحد لأجل ما في قلوبهما من الشهوة والمحبة وغير ذلك وترك عذابهما؛ كان ذلك جالبًا لما يضرهما ودافعًا لما ينفعهما؛ فإن ذلك مرضٌ في قلوبهما، والمريض الذي يَشتهي ما يضره ليس دواؤه إعطاءه المشتهي الضار، بل دواؤه الحمية وإن آلمته، وإعطاؤه ما ينفعه وتعويضه عن ذلك الضار بما أمر مما لا يضر... فهكذا أهل الشهوات الفاسدة وإن أضرمت قلوبهم نارُ الشهوة ليس رحمتهم والرأفة بهم تمكينهم من ذلك، أو ترك عذابهم فإن ذلك يزيد بلاءهم وعذابهم، والحرارة التي في قلوبهم مثل حرارة المحموم متى مُكِّن المحموم مما يضره ازداد مرضه أو انتقل إلى مرض شر منه .